بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الْجِبَالُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الْحَمْدُ لله الَّذي لَا يَبْلُغُ مَدْحَتُهُ الْقَائلُونَ، وَلَا يُحْصي نَعْمَاءهُ الْعَادُّونَ، وَلَا يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهدُونَ، الْخَالقُ بلَا حَاجَة، وَالْمُميتُ بلَا مَخَافَة، وَالْبَاعثُ بلَا مَشَقَّة، كَتَبَ عَلَى نَفْسه الرَّحْمَةَ، وَسَبَقَ عَفْوُهُ عقَابَهُ، لَا يَخْفَى عَلَيْه مثْقَالُ ذَرَّة في الْأَرْض وَلَا في السَّمَاء، لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطيفُ الْخَبيرُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا الله وَحْدَهُ لَا شريكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ الله وَرَسُولُه، الْبَشيرُ النَّذير، وَالسِّرَاجُ الْمُنير، خيرُ مَنْ صَلَّى لله وَقَامَ، وَحجَّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَصَامَ، فَصَلَوَاتُ الله وَسَلَامُه عَلَيْه وَعَلَى آلَ بَيته الطَّيِّبينَ الطَّاهرينَ، وَعَلَى أَزْوَاجه أُمَّهَاتُ الْمُؤْمنينَ، وَعَلَى الصَّحَابَة وَالتَّابعينَ وَمَنْ تَبعَهُمْ بإحْسَانٍ إلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَسَلَّمَ تَسْليمًا كَثيراً.

أَمَّا بَعْدَ:

فَانْظُرْ كَيْفَ أَحْكَمَ جَوَانبَ الأرض بالْجبَال الرَّاسيَات الشَّوَامخ، الصُّمِّ الصِّلَاب، وَكَيْفَ نصبَهَا فَأَحْسَنَ نصْبَهَا، وَكَيْفَ رَفَعَهَا وَجعلَهَا أصْلَب أجزاء الأرض؛ لئَلَّا تَضْمَحلَّ عَلَى تَطَاوُل السِّنِين، وَتَرَادُف الأمطار وَالرِّيَاح بَل اتقَنَ صُنْعَهَا، وأحْكَمَ وَضْعَهَا، وأودَعَهَا منَ الْمَنَافع وَالْمَعَادن وَالْعُيُون مَا أودَعَهَا، ثُمَّ هَدَى النَّاسَ إلَى اسْتخْرَاج تلْكَ الْمَعَادن منْهَا، وَألْهَمَهُمْ كَيْفَ يَصْنَعُونَ منْهَا النُّقُودَ والْحُليَّ وَالزِّينَةَ وَاللِّبَاسَ وَالسِّلَاحَ وَآلَةَ الْمَعَاشِ عَلَى اخْتلَافهَا، وَلَوْلَا هدَايَتُهُ سُبْحَانَهُ لهم إلَى ذَلكَ لَمَا كَانَ لهم علْمُ شَيْءٍ منْهُ، وَلَا قُدْرَةَ عَليه.

الْجِبَالُ وَأَثَرُهَا فِي الْمَسَائلِ الْمُتَعَلِّقَة بالْعَقيدَة:

أَمَّا إثْبَاتُ تَوْحيد الرُّبُوبيَّة فَيَتَجلَّى في قَوله تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لميقَاتنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرني أَنْظُرْ إلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَاني وَلَكن انْظُرْ إلَى الْجَبَل فَإن اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَاني فَلَمَّا تَجلَّى ربُّهُ للْجَبَل جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمنينَ﴾[الأعراف:١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجزًا أَإلَهٌ مَعَ اللَّه بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[النمل: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فيهَا رَوَاسيَ شَامخَات وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾[المرسلات: ٢٧]، ثابتات سَامقَات، تَتَجمعُ عَلَى قممهَا السُّحُب، وتَتحدرُ عنهَا مَسَاقطَ الْمَاء الْعَذْب. أَفَيكُونُ هَذَا إلا عَنْ قُدْرَة وَتَقْدير، وَحكْمَة وَتَدْبير؟ أَفَبعْدَ هَذَا يُكَذبُ الْمُكَذبُونَ؟ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئذ للْمُكَذِّبينَ﴾[المرسلات: ١٥].

هَذه الجبالُ العظَام الرَّواسي الشَّامخَات تُحقِّقُ توحيدَ الأُلُوهية؛ فَهيَ منْ عبَاد الله الَّذينَ لا يَعْصُونَه.

أَمَّا التَسبيحُ: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعلينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فَهذه الجبالُ لا تَفْتُرُ عَنْ تَسبيح الله، وعبادَة الله، فَأين نَحنُ يَا عبادَ الله منْ تَسبيح الله وذكْره عَلى الدوام!، بَلْ إنَّ بَعضَ البَشَر يَكرهُ ذكْرَ الله تَعَالَى كَمَا في قَوله تَعَالَى: ﴿وَإذَا ذُكرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذينَ لَا يُؤْمنُونَ بالْآخرَة وَإذَا ذُكرَ الَّذينَ منْ دُونه إذَا هُمْ يَسْتَبْشرُونَ﴾[الزمر: ٤٥].

وأَمَّا السُجُود: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّمَاوَات وَمَنْ في الْأَرْض وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثيرٌ منَ النَّاس﴾[الحج: ١٨]، وهَذه رسَالةٌ منَ الجبالِ الرَّواسي لكُلِ مَنْ تَركَ الصَّلاةَ،

فَإِنَّ هَذِهِ الجِبالُ تَسجُدُ للهِ تَعالَى، فَاحذَرْ يَا مَنْ قَصَّرَ فِي الصَّلاةِ، ويَا مَنْ تَهاونَ فِي صَلاةِ الجَماعَةِ، ويَا مَنْ تَهاونَ فِي الصَّلاةِ النَّافِلَةِ، وخُذْ مِنَ الجِبالِ عِبرَةً ودَرْساً.

وأَمَّا الخَشيَةُ: فَمعَ طَاعَةِ الجِبالِ للهِ تَعالَى إِلَا أَنَّها خَائِفَةٌ وَجِلَةٌ تَخْشَى اللهَ، وتَخْشَى غَضَبَهُ وعِقَابَهُ؛ فَالأَولَى بِالبَشَرِ أَنْ يَخافُوا اللهَ، ويَحذَرُوا مِنْ عِقَابِه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وأَمَّا إِعَانَةَ الرُّسْلِ فِي دَعْوَتِهِمْ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

أَمَّا الْاعْتِبَارُ بِالْجِبَالِ، فَإِنَّ النَّاظِرَ فِي الْجِبَالِ وَالْمُتَأَمِّلِ فِي خَلْقِهَا لِيَزْدَادُ إِيمَانُهُ مِنْ عَظَمَتِهَا وَكِبَرِ خَلْقِهَا:

١. ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩)﴾ [الغاشية: ١٧-١٩] ، فَسُبْحَانَ مَنْ نَصَبَهَا ودَبَّرَ أَمْرَهَا.

٢. ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

٣. ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

٤. ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

٥. كمَا بَينَ اللهُ أَلوانَهَا، وَفِي أَلوانِهَا العَجائِبُ والغرائِبُ، فقَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾[فاطر:٢٧-٢٨].

وَقَدْ مثَّلَ اللهُ بِالْجِبَالِ فِي الْقُرْآنِ عَلَى قَضَايَا تَسْتَوْقِفُكَ كَثِيراً.

وَمِنَ الْأَمْثَالِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْجِبَالِ:

١) فانظر إلى أثر القرآن في الصخر الجامد لو تنزل عليه، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الحشر: ٢١]، تفكروا فإن لهذا القرآن لثقلا وسلطانا وأثرا مزلزلا لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته.

٢) قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة:٢٦٠].

٣) وإليك مثالٌ ومشهدٌ آخر من مَشاهِدِ هَذا الكونِ التي يمرُ عَليهَا النَّاس غافلين، وفيها مُتعةٌ للنظر، وعبرةٌ للقلب، ومجالٌ للتأملِ فِي صُنعِ اللهِ وآياته، وفي دلائل النور والهدى والإيمان، قال تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾[النور:٤٣].

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ مِنْ نِعمِهِ فِي الْجِبَالِ الْكَثِيرِ:

أَمَّا عَلَى مُسْتَوَى الْأُمَمِ فَهَؤُلَاءِ قَوْمِ ثمود، وَقَدْ ذَلَّلَ اللهُ الْجِبَالَ لهم، فَكَانَتْ نعمةً مِنْ نِعَمِهِ سُبْحَانَهُ لهم: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣)﴾[الحجر: ٨٠-٨٣]، ولكنهم كفروا بالله وما كَفرت الجبالُ، فَأَهلكهُم اللهُ وتركَ الجبال، ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾[القصص: ٥٨]، شَاهِدَة عَلَى كُفرهِم وضَلالِهم.

وَمِنْ نِعَمِهِ فِي الجِبَالِ:

- أنَّه ثَبَّتَ الأرضَ بالجبال، ولَولَا الجبالِ لَفَسَدَت الأرضُ، وَتَلاعَبَتْ بالنَّاسِ، فَلا يَرتَاحُونَ عَلَيهَا، ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾[الرعد:٣]، ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[النحل:١٥].
- جعل الجبال بيوتا ومساكن للنحل فقال: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[النحل:٦٨].
- كما جعلها بيوتا ومساكن للناس ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[النحل:٨١].

ومن آيات الله الباهة أنه سبحانه هدد المعاندين بجعل الجبال عقوبة لهم:

أما اليهود/ ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأعراف:١٧١].

وأما النصارى/ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١)﴾[مريم:٨٨-٩١].

وفي نهاية المطاف أبين لكم حال الجبال في الآخرة: وهي المخلوقة العابدة لله تعالى غير العاصية له سبحانه

ومع ذلك تدبر ما يصنع الله بالجبال في الآخرة وما يحصل لها، وهذا من أهوال يوم القيامة:

أولاً: التسيير/ ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[الكهف:٤٧]، ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[النمل٨٨].

ثانياً: الحمل والدك: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة. وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾[الحاقة:١٤].

ثم تمر الجبال في الآخرة بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى / ينسفها الله ويزلزلها حتى تكون كالصوف: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾[القارعة:٥].

المرحلة الثانية/ ينسفها مرة أخرى حتى تتحول إلى رمل ولك أن تتخيل ما يحصل لها: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾[المزمل:١٤].

المرحلة الثالثة/ يسويها بالأرض: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾[طه:١٠٥-١٠٧].

الخطبة الثانية:

أَعَدَّها
د. سعيدُ بن سعد آل حماد
www.alhmmad.net

١٤٣٧/٤/٢٦